التنازع على مصر

كانت الخلافة الفاطمية في مصر تسير نحو الانهيار ، وقد شاع الانحلال في الخلفاء لانغماسهم في المتارف ، فاكتفوا بما يتمتعون به من رغد العيش ، وتركوا حكم البلاد الى خدمهم ومواليهم ، فجعل هؤلاء الموالي يقبضون على ازمة الامور حتى اصبح السلطان الحقيقي في ايديهم ، واصبحت حال الخليفة الفاطمي في القاهرة وهو على عرشه الباذخ ، كحال زميله الخليفة العباسي في بغداد ، وباتت الدولة من الضعف بحيث كان يسهل على أي مغير فتحها والاستيلاء عليها من غير عناء ، ولم يكن بقاؤها في ايدي الفاطميين الا لعدم وجود الفاتحين الاقوياء فيما يجاورهم من البلدان ، لأن السلاجقة كانوا قد ضعفوا هم ايضاً لانقسامهم وتفرقهم . أما الفرنجة في القدس ، فكان الفاطميون يسدون افواههم بالذهب فيدفعون به شرهم عن مصر .

على ان وادي النيل كان ما يزال مطمح انظار الفرنجة ، كما كان مطمح انظار نور الدين زنكي الذي اتسع ملكه وقوي نفوذه بعد استيلائه على دمشق وانتصاره على الفرنجة في عدة معارك نشبت بينه وبينهم . وكان كل من نور الدين ، وحكام الفرنجة ،

يرى في الاستيلاء على مصر سبيلاً لترجيح كفتـــه على الاخر في ميزان القوى والحروب في الشرق الأوسط .

وكان طبيعياً ان يتنازع امراء الدولة الفاطمية وقوادها عـلى منصب الوزارة ، وهو في حقيقة الأمر المنصب الاول في الدولة لما لصاحبه من نفوذ على الخليفة نفسه . وقـــد شهدت سنة ٥٥٧ (١١٦٢) صراعاً عنيفاً على هذا المنصب بين اميرين عنيدين اولهما شاور بن مجير السعدي الذي كان والياً على اعمال الصعيد ، فخافه الخليفة العادل لتعاظم نفوذه فأمر بعزله ، فاذا بـــه يجمع الجموع وينزل الى القاهرة فيحتل قصر العادل ويقتله ، ويتولى الوزارة في خلافة العاضد الذي لقبه باميرالجيوش . وثانيهما امير يدعى ضرغام بن سواد ويلقب بالمنصور ، وقد قام ينازع شاوراً فظهر أمره وعلت كلمته ، حتى استولى على الوزارة ، وارغم شاور عـــلى الهرب ، فانطلق من مصر الى الشام يستنجد بنور الدين زنكي ويتعهـــد له بثلث خراج مصر وجعل حاميته فيها من الجنود الشامية تحت امرة شيركوه ممثلا لنور الدين فيها ، ان هو أنجده وأمده بجيش لافتتاح الديار المصرية ، بينما لجأ ضرغام الى اموري (اماريك) ملك الدولة اللاتينية في القدس ، فعقد معه محالفة وطلب منه ارسال جيوشه الى مصر ، وكانت هذه الجيوش اللاتينية قد اقبلت لافتتاحها منذ امد يسير ثم ارتدت عنها لأن ضرغام قطع الجسور ، وكان النيل مرتفعاً ، فاغرق البلاد من ناحية بلبيس التي اقبلوا منها .

وقد وجد طلب شاور هوى في نفس شيركوه قائد قواد الشام وعم صلاح الدين ، وحث مليكه نور الدين على نجدته فقبل هـــذا

بعد تردد يسير لأن اموري كان شديد العداوة له ومملكته تفصل بين أملاك نور الدين ومصر فخاف اول الأمر على جنده واتباعه لوعورة المسلك وبُعد المطلب . كما وجد اموري في تحالفه مع ضرغام سبباً قد يمهد له طريق الاستيلاء على مصر .

وهكذا تسابقت جيوش نور الدين زنكي وجيوش الفرنجة الى الى وادي النيل ، فكانت الاولى هي السابقة في الدخول اليه . وكان على رأس هذه الحملة شيركوه الذي كان يطمع إما استولى على مصر ان يستقل بها من نور الدين وان يسير بها في طريق الاستقلال ويتفرد بالسلطان فيها. وقد اصطحب معه ابن اخيه صلاح الدين وكان يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً ، وأبدى مهارة كبرى وبسالة عظيمة ، فاستطاع دحر الجيوش المصرية في بلبيس والفسطاط ومحاصرة ضرغام في القاهرة . وكان هذا الأمير ، مذ تولى مقاليد السلطة بعد شاور، قد عمد الى الظلم والطغيان وانتهاب الارزاق ، حتى ضجت البلاد من جوره فتخلى عنه الخليفة ، وتفرق عنه الجيش ، ووثب الناس عليه اثناء حصار القاهرة فقتلوه وقطعوا رأسه . وتداعى بذلك حصار المدينة ، فدخلها جند شيركوه ، وجلس شاور على سرير الوزارة المصرية . ولكن لم تكد الأمور تستتب لهذا الوزير حتى احتال على شيركوه وجنده فجعلهم خارج القاهرة ، ثم امتنع عن تنفيذ العهود التي قطعها لهم . فسار صلاح الدين بقسم من الجيش لاحتلال بلبيس . واستنجد شاور باموري ملك الفرنجة كما فعل سلفه ، فاذا بالنجدة الفرنجية التي كان زعيم الدولة اللاتينية قدأعدها لنصرة ضرغام ،تقبل لنصرةخصمه شاور،

وتحاصر شيركوه وجنوده في بلبيس .

واستعر القتال بين الفريقين ، واستمر ثلاثة شهور ، ثم اتفقا على الصلح بان تخلي كل منهما عن ارض مصر . قال ابن الأثير : « حدثني من رأى اسد الدين شيركوه حين خرج من بلبيس ، قال : أخرج اصحابه بين يديه ، وبقي في آخرهم ، وبيده لب من حديد يحميهم ، والمسلمون والافرنج ينظرون اليه . فأتاه افرنجي من الغرباء الذين خرجوا من البحر ، فقال له : أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون والأفرنج ، وقد احاطوا بك وبأصحابك ، فلا تبقى لكم بقية ؟ فقال شيركوه : ليتهم فعلوا حتى كنت ترى ما أفعله ، كنت والله أضع السيف فلا يقتل منا رجل حتى يقتل منهم رجال ، وحينئذ يقصدهم الملك العادل نور الدين وقد ضعفوا وفني شجعانهم ، فنملك بلادهم ونهلك من بقي ، والله لو اطاعني هؤلاء لخرجت اليكم من اول يوم ولكنهم امتنعوا » .

❁

عاد قائد نور الدين الى دمشق ،وعاد مليك الفرنجة الى القدس ، وظلت المطامع تجيش في قلب كل منهما . ولم ينقض وقت قصير حتى أرسل ملك الفرنجة حامية من جنده الى مصر ، بالاتفاق مع شاور ، بغية تمكين اقدامه في هذه البلاد الجميلة الوافرة الثراء ، وحتى كان شيركوه يستعد لمهاجمة مصر بعد ان اقنع نور الدين بأنها بلا رجال تحميها ، وان حكومتها قلقة على الدوام ، وان تربتها لمن اخصب بقاع العالم ، وقد أقر الخليفة العباسي في بغداد هذه الحملة لمحو الخلافة الفاطمية ، وتوحيد البلاد تحت راية بني العباس .

سار شيركوه على البلاد المصرية بنخبة من رجال نور الدين ، واتخذ طريق الصحراء مؤثراً مجابهة رياحها المتناوحة ورمالها السوافي على انتهاج طريق الساحل والاصطدام فيها بجيوش الملك اموري . بيد ان هذا الاصطدام لم يلبث ان وقع في مصر ، إذ عقد ملك الفرنجة مع الخليفة الفاطمي معاهدة تقضي بان تدفع مصر خراجاً سنوياً للقدس وتكون تحت حمايتها ، ثم امر جيوشه بتعقيب جيوش الشام ، فالتحمت معها في مكان يعرف بالبابين ، وخاض الفريقان معركة كبرى انتهت بانتصار شيركوه وابن اخيه صلاح الدين لما اظهرا وجنودهما من ضروب المهارة والبطولة ، الا ان شيركوه لم يطارد خصومه الهاربين الى القاهرة ، بل تخطاها الى الاسكندرية فاحتلها واقام صلاح الدين حاكماً عليها ، وعاد هو بنصف جيشه الى الصعيد . وفيما هو ماض الى القاهرة لمهاجمتها والاستيلاء عليها ، علم الفرنجة ان اسطولاً صليبياً وصل الى الاسكندرية ، فاتفقوا والمصريين على مهاجمة هذه المدينة ، وضربوا الحصار حولها ، فدافع صلاح الدين عنها خير دفاع ، وكانت هذه المعركة هي اولى المعارك الكبيرة التي قادها منفرداً ، وقد اظهر فيها الواناً رائعة من المهارة والشجاعة .

ودام هذا الحصار العنيد الذي استبسل فيه الفريقان ، سبعين يوماً علم الفرنجة في نهايتها ان شيركوه يحاصر القاهرة من بركة الحبشة وربما اقتحمها بين ليلة وضحاها ، وان نور الدين قد اغتنم فرصة انشغالهم في مصر فهاجم ممتلكاتهم وهو يستولي على بلدة بعد اخرى فسارع الى عقد الصلح مع الحملة الشامية ، واتفق الفريقان على

الانسحاب من مصر وعدم التدخل في امرها . ويقول بعض المؤرخين ان صلاح الدين ، قبل مغادرته مصر ، مكث عدة أيام في معسكر الفرنجة محوطاً بالاجلال والاكرام ، فاطلع على نظم الجندية وتقاليد الفروسية عندهم ، وتعرف بهمفري (الهنفري) الفارس الصليبي الشهير الذي تزعم الاساطير الاوربية ان صلاح الدين تسلم اجازة الفروسية على يديه .

ولكن الرغبة في الاستيلاء على مصر كانت قد استبدت بكل من اموري ونور الدين ، لما لوادي النيل من الاهمية السياسية ولما هو عليه من الغنى والخصب . وسرعان ما عاد ملك الفرنجة بجيوشه الى مصر ، غير انه لم يعد اليها حليفاً كما نصت المعاهدة التي عقدها مع الخليفة الفاطمي ، بل عاد اليها هذه المرة فاتحاً على اسوأ ما يكون الفاتحون . قال بيزانت وبالمير في كتابهما « القدس » : « سار فتيان القدس وما حولها من المدن واستولوا على بلبيس بعد مسيرة عشرة ايام في الصحراء ، في طريق قد عرفوه من قبل ، ولم يقاوم اهل بلبيس الا مقاومة ضعيفة استمرت ثلاثة ايام ، استولى الفرنجة بعدها عليها ، وذبحوا كل طفل وامرأة ورجل وقع في قبضتهم » .

وقد اضطرب شاور لهذا الامر اضطرابا عظيما ، وارسل الى اموري يسأله عن سبب حملته ، فاجابه ان المال الذي تدفعه مصر اليه قليل ، فأنظَرَه الى اجل قريب ، وبادر الى احراق الفسطاط كي لايحتلها الفرنجة ، واخذ يفكر في الاستنجاد بنور الدين ، ولكنه لم يجرأ على الكتابة اليه بنفسه بعد ان مكر به واخلف عهده له ، فكتب اليه الخليفة الفاطمي كتابا مؤثراً ارسل معه شيئاً من شعور

نسائه وقال فيه : « هـــذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهن من الافرنج » .

ولبث شاور يماطل اموري ، ويرسل اليه الرسل والكتب ، ويفاوضه على مقادير من المال ، وهو يطلب المزيد ، فيعده باجابة طلبـــه ، ويبعث اليه بقسم منه مؤكداً له انه جادّ في جمع القسم الآخر ، واموري مستسلم لهـــذه الوعود وما تثيره في نفسه من الاحلام ، فلا يجيب قواده وجنوده الى ما يريدون من الاسراع في الهجوم على القاهرة ،بل يزحف اليهـــا متباطئاً منتظراً لانه يريد الاستيلاء على كنوز مصر من اهون سبيل ، ثم يقف في ضواحيها فلا يتقدم ولا يهاجم ولا يحاصر لان شاور قـد انذره بانه إن فعل ذلك كف الناس عن دفع المال ، ولا يدري انه قـد وضع نفسه بذلك حيث اراد شاور ان يضعه ، ليوقعه بين نارين فيطوقه ، اذ تصل جيوش نور الدين ، ويقضي عليه . واذا كان اموري لم ينتظر حتى يقع في الفخ ، بل ساوع الى مغادرة مصر مذ عرف بقـــدوم جيش الشام ورأى شاور يتنكر له ويكشف عن نياته ، فانه قـد خسر مصر على كل حال ، وخسرها الى الابد ، والحقت به هزيمتُه العارَ امام جنده وقواده وحلفائه ، لان طمعه الذي حمله على تلك الحملة الجنونية هوالذي افضى به الىتلك النتيجة الخاسرة التي افقدتهم صداقة مصر ونقلت البلاد الى حكم قويّ جديد .

وكان جـلاء اموري عن مصر في شهر ربيع الثـاني سنة ٥٦٤ (كانون الثاني سنة ١١٦٩) . ويـــذهب غليوم الصوري المؤرخ الصليبي الشهير الى ان هـذا الحادث كان المعول الاول الذي هدم

حكم الفرنجة في القدس ويقول : « لقد كانت كنوز مصر كلها تحت اقدامنا ، وكانت اسباب الامان والسلامة والهدوء متوفرة لاولئك الذين يفدون علينا من اوربا عن طريق البحر ، وكان باب التجارة مفتوحاً لمن يرغبون في ثروة مصر ، ولم يكن لنا عدو في جهاتنا الجنوبية بل كان المصريون دائبين على جلب بضائعهم وخيرات بلادهم الى اسواقنا وانفاق ذهبهم في بلادنا. على ان هذا كله قد ذهب وضاع ، بل تبـــدل وتغير ، فحل الحزن والشقاء محل السرور والنعمة ، واصبح البحر يأبى علينا ملاحة مطمئنة ، وصارت البلاد التي تحيط بنا تطيع عدونا ، وتسلحت كل مملكة لحربنا وتدميرنا ، وجميع هذه النتائج المحزنة السيئة انما جاءت من وراء جشع رجل واحد وطمع فرد من افرادنا » .